

المقدمة

ما زالت اتجاهات الحداثة تغزو وتُحاصر أفكارنا، بل و تسيطر على أبحاث مفكرينا عبر شتى دراسات العلوم، وحتى على مستوى النشاطات اليومية، بمعنى أننا أصبحنا مطالبون بمواكبة صيحة الحداثة و الأخذ بمبادئ التحديث، والعمل بها فى جميع مناحى تفكيرنا و تطبيقاتها العملية.

هذا فى الوقت الذى طالعنا زمرة فلاسفة ومفكرى الغرب بإستراتيجية مناهضة للحداثة، هى فى صميمها وجهات نظر نقدية، تتناول بالنقد مجمل الفكر البشرى السابق عليها من فلسفات و مناهج و تَمَسُ أيضاً طرق معرفتنا و كيفية علاقتنا باللغة، و هذا يعنى ضمناً أن نقد ما بعد الحداثة إنما أتى لنقد التراث البشرى عامة، بما فيه فكر الحداثة، و لكى يكشف عن مأزق الفكر الغربى خلال و بعد الحداثة.

وسواءً نجح الفكر الغربى أم لم ينجح فى الخروج من مأزقه بإستراتيجية الحداثة أو بإستراتيجية ما بعد الحداثة. فعلينا (نحن المجتمعات العربية أو الشرقية) أن نتحدث (نطبق مبادئ الحداثة) أولاً لنتهيأ لدخول مرحلة ما بعد الحداثة، لنواكب المجتمع الغربى الذى حتمت علينا سمات عصرنا التكنولوجية ضرورة مواكبته، لكوننا نحيا معاً فى نفس القرية الإلكترونية الصغيرة.

ومن هنا تتبع أهمية بحثنا هذا (جذور الحداثة و ما بعد الحداثة).

أهمية البحث:

أولاً - للوقوف على مكونات الحادثة الفكرية، لتكوين فهم علمي أفضل لكيفية عمل استراتيجيتها، و التحقق من مدى اتساقها مع جذورها كأفكار تتطور أو تتغير طرق تناولها عبر تاريخ الفكر الفلسفي.

ثانياً - إن كانت أفكار الحادثة غريبة عنا (ليس لها جذوراً في تراثنا)، فالنظر في التراث الذي أنتج الحادثة (كجذور و مُمهدات و أفكار مؤثرة)، كل هذا مهم جداً لفهم من خلاله و نقرأ جذور الحادثة و نفهم مشروعها و نتدبر نفعها و مقتضيات تقدمها و أسباب تراجعها أو قصورها، و لنعلم حقيقة نقد ما بعد الحادثة و موقف الفكر الغربي النهائي من الحادثة التي أنتجها و فرضها، و اليوم ينتقدها و يرفضها.

ثالثاً - لما كانت أفكار الحادثة تضم بعض المتناقضات، و تتناقض مع أفكار ما بعد الحادثة، وهذه الأخيرة تزخر بالمتناقضات و تعتمد الغموض، كل هذا سيجعلنا نتناول معظم أفكار و مفاهيم الحادثة و ما بعدها بالتفصيل و التحليل، الذي يمكننا من الكشف عما يكتنفه فكر الحادثة من غموض، لنرى ما نحن مقبلين عليه إذا ما تعاطينا مع فكر الحادثة الغربي بنفس منطقهم دون أن ننتبه لاختلاف جذوره عن الأفكار التي شكلت فكرنا الشرقي في مرحلة تألقه و ريادته للفكر البشري.

رابعاً - سيمكننا البحث عن جذور الحادثة من مواكبة التغيرات التي طرأت على مباحث الفلسفة المعاصرة و مناهج البحث العلمي المعاصرة، حيث البنيوية والنفيكية والتأويلية والفينومينولوجيا، وتحديد دور اللغة والنقد الأدبي في فلسفة تلك النظريات النقدية المعاصرة.

خامساً- محاولة لسد عجزاً في مكتبتنا العربية حول الحادثة و ما قبلها وما بعدها، لنرى ما هى الحاجات التى أدت لظهور الحادثة ؟، وكيف ومتى وأين بُدعت الحادثة؟ بطريقة علمية موثقة بالشواهد التاريخية.

و تلك ليست جميع العناصر التى يتحدد من خلالها أهمية البحث و لكنها أهمها، فباقى العناصر ستتضح من خلال متن البحث و من خلال تحديد أهدافه و مدى تحقيقها، لأن قيمة البحث يجب أن تحددها قيمة الغاية التى يتوجه إليها، و هى مجموعة من الأهداف تتحدد من خلال عدة أسئلة، نحاول أن تكون غايتنا فى هذا البحث هى العثور على أفضل أجوبة ممكنة علمياً (موثقة بالنصوص) لتلك الأسئلة المحورية، و هى كما يلى :

١ - هل هناك علاقة تأثير مباشر للأفكار و الاتجاهات الفلسفية السابقة (جذور و تراث الفكر الغربى) على فكر الحادثة و فكر ما بعد الحادثة؟ أم أن فكر ما بعد الحادثة يُمثل (كما يدعى رواده) قطيعة معرفية مع مجمل الفكر البشرى السابق، من حيث المنهج والمحتوى والاستراتيجية النقدية الجديدة و المفاهيم و المصطلحات ؟.

٢ - إذا كانت الحادثة و ما بعدها قد تأثرتا ببعض أفكار الفلسفات و الاتجاهات النقدية السابقة، فما هى أهم تلك الأفكار التى تأثرت بها الحادثة و كيف أثرت فى ما بعد الحادثة؟، و ما مدى و كيفية هذا التأثير ؟ و هل هناك دليل يؤكد صحة نسب الحادثة إلى جذورها.

٣ - إلى أى عصر أو قرن تمتد جذور الحادثة ؟ و هل يمكن أن نُحدد تاريخاً تقريبياً لنشأت تلك الأفكار التى مهدت و طالبت بضرورة التحديث ؟ و هل هناك بداية مُحددة لبزوغ فجر الحادثة أم يختلف الباحثين على بداية الحادثة بحسب تخصصاتهم ؟.

٤ - ما علاقة تطور الدراسات اللغوية (كنموذج أخذ بمتطلبات التحديث) بكل من نظرية المعرفة من جهة، و من جهة أخرى فكر الحادثة و فكر ما بعد الحادثة؟.

٥ - هل هناك علاقة تأثير مباشر لفلسفة كانط النقدية (كجذور للحادثة) على البنيوية؟، وإذا ثبت تأثر البنيوية بفلسفة كانط، فبأي من أفكاره تأثرت؟، وما هي الكيفية التي تعاملت بها البنيوية مع أفكار كانط الفلسفية؟.

٦ - هل للتفكيكية جذور فلسفية تربط بينها و بين أفكار كلٍ من نيتشه و هايدجر؟، و ما مدى تقارب كلٍ منهما مع أفكار ما بعد الحادثة و خصوصاً التفكيكية؟، و ما هي مواضع التقارب التي تُمثل جذور ما بعد الحادثة؟.

٧ - ما سبب حالة الفوضى النقدية التي تتسم بها نظريات ما بعد الحادثة النقدية؟، و ما هي الفلسفة التي تؤثر على نظريات ما بعد الحادثة النقدية؟، و ما هي الجذور المشتركة لنظريات ما بعد الحادثة؟.

٨ - هل تتواصل الجذور الفلسفية للحادثة و تداخل مع أفكارها و مع أفكار ما بعد الحادثة؟، أم أنها أفكاراً منفصلة لا تُمثل استمراراً للجذور؟ (كمراحل تطور لنفس الفكرة التي قد تظهر بصياغة جديدة).

منهج البحث :

و للوصول لنتائج صائبة لمثل هذه الأسئلة كان لزاماً علينا أن نتبع فى بحثنا هذا المنهج "التحليلى التركيبى التاريخى"، و كذلك المنهج "التحليلى المقارن"، و المنهج "التحليلى النقدى" بحيث تتوافر لدينا جميع الأدوات التى تُمكننا من البحث التاريخى فى التراث الغربى، و تحليل أفكار أو نصوص فلاسفة و مفكرين و نقاد سابقين تاريخياً (تعمل كجذور)، ثم نقوم بتحليل الأفكار أو النصوص (الحداثية) المشابهة للأولى، ثم نُجرى المقارنة بينهما لنرى ما إذا كان بينهما تماثل أو تشابه، ليكون ذلك بمثابة دليل على رد الحادثة إلى جذورها التى يثبت المنهج المقارن توأماً بينهما، و المنهج التركيبى نستخدمه لتركيب ما حللناه من أفكار، أو لنركب ما نستنتجه من المقارنات، و المنهج التحليلى النقدى سيمكننا من تحليل الأفكار الغامضة و المتناقضة ببصيرة نقدية لا تكتفى بعرض الأفكار بل تتفحصها بنظرة نقدية، و ربما يكون هذا المنهج هو الذى مكننا من تكوين وجهة نظر خاصة بنا تجاه بعض الأفكار.

أما عن موضوع هذا البحث فهو محاولة متواضعة "للكشف عن جذور الحادثة و ما بعد الحادثة"، و يبدأ البحث بتمهيد نتناول فيه توضيح المقصود "بالحادثة" و تعريفها بالصياغات القاموسية و اللغوية المتوفرة، و توقيت ظهورها فى أوربا، و التغيرات التى أحدثتها على الفكر الفلسفى و غيره من العلوم الإنسانية، لى تتميز مرحلة الحادثة عن أى مفهوم زمنى قد يعنى الجديد فى عصره.

ثم نتابع بعد ذلك فصول البحث و هي كما يلي :

الفصل الأول: "جذور الحداثة"

ترجع جذور الحداثة في الفكر الغربى إلى القرن السابع عشر الميلادى، حيث ظهرت الفلسفة الحديث عند رواد الفكر العقلانى "ديكارت" و التجريبي "جون لوك"، فالفيلسوف "ديكارت" لا يرى الحقيقة إلا في الأفكار الواضحة، حتى قيل عن اليقين الديكارتي الأول : "أنا أفكر إذن أنا موجود" إنه بداية الخطاب العلمى المفارق أو بداية انفصال الكلمات (الدال) عن الأشياء (المدلول).

أما الفلاسفة التجريبيون و على رأسهم "جون لوك" فهم يعلنون التزامهم بمعطيات العالم المحسوس، مما أكد على ضرورة الفصل بين الدالات و المدلولات، و يخلص الفصل الأول إلى بيان أن بداية الحداثة الغربية في القرن السابع عشر كانت ثورة على الفكر القديم، كما كانت ثورة في الاستخدام اللغوى و الدراسات اللغوية، مما نتج عنه تغير العلاقة التي كانت بين الدال و المدلول (شقى العلامة اللغوية).

الفصل الثانى : "الحداثة ونظرية المعرفة".

يتضح لنا في هذا الفصل أنه حتى منتصف القرن السابع عشر كانت هناك وحدة ثقافية (أو وحدة كونية) تربط بين مكوناتها (أو أضلاعها الأربعة) وهى عالم الميتافيزيقا (الله)، والإنسان، والعالم المادى (الطبيعة)، واللغة باعتبارها أداة التعبير عن المعرفة التى تولدها العلاقات المتشابهة بين المكونات الثلاثة الأخرى، إلى هنا كانت المعرفة ضمن مباحث الفلسفة (و كانت اللغة تُبحث ضمن المعرفة) إلى أن ظهرت المذاهب الفلسفية

(عقلانية و تجريبية و مثالية و وجودية) مما أحدث تغيرات فى علاقة تلك الأضلاع بدرجات متفاوتة، فترتب على ذلك تغيرات فى استخدام الإنسان للغة و نظرتة إليها، و تطورت الدراسات و الأبحاث اللغوية فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر و بدايات القرن العشرين، إلى درجة جعلت فلاسفة اللغة يؤكدون على استقلال اللغة عن الإنسان.

و يظهر بعد ذلك النموذج اللغوى كمثال واضح للتقدم و التطور الذى أحرزه من خلال أخذه بمقومات و متطلبات التحديث، فأصبح النموذج الذى يجب أن يُحتذى به فى باقى العلوم الإنسانية لكى تتطور و تتقدم مثلماً تقدمت الدراسات اللغوية بعدما طبقت أسس و مبادئ الحداثة.

الفصل الثالث : "جذور الحداثة بين كانط والبنويوية"

يهدف هذا الفصل إلى التأكيد على أن البنويوية (وهى وليدة الحداثة الأوروبية) كانت ثورة على المناهج الغربية التى تختص بدراسة الظواهر البشرية و على رأسها اللغة، كما كانت ثورة على الفلسفة ذاتها فيما زعم البنويويون من أن "الفلسفة لا تثبت فى أرض حريتها البنويوية" و سنوضح فى هذا الفصل علاقة التأثير الظاهر بين البنويوية وبعض أفكار "كانط" الفلسفية، فالبنية التحتية "اللا شعورية" عند "ليفى ستراوس" هى نفسها قوالب الفكر الأولية التى تشكل المعرفة الممكنة عند كانط.

و قد كانت البنويوية تطمح إلى تأسيس مذهب نقدى جديد يعتمد فى شرعيته على منهج علمى تجريبى، على غرار اليقين الذى لم يشك فيه "كانط"، و سنبين فى هذا الفصل أيضاً قصور النموذج البنويوى فى الدراسات الأدبية، فقد بدأت مقاومة البنويوية بتركيباتها الجديدة التى ركزت على قهر الذات، ذات المبدع (المؤلف) و المتلقى (القارئ) و ذلك بإحلال اللغة كقوة قهر جبرية

جديدة محل العقل، و هذا كله يذكرنا بالفيلسوف "كانط" عندما استهدف إعادة الانضباط فى مجالى الفلسفة و الأخلاق.

الفصل الرابع : "التفكيكية ومارتن هايدجر"

نبين فى هذا الفصل إنه إذا كانت البنيوية قد ارتبطت باستقرار اليقين العلمى و التجريبى حتى الخمسينات من القرن العشرين، فإن التفكيكية لا تدرس بمعزل عن شك العصر بعد أن ظهرت آثار الدمار الذى خلفته الحرب العالمية الثانية، و ساد الاعتقاد بفشل العلم فى تحقيق الأمان وتمخض الشك عن إحساس جديد باستحالة المعرفة.

و سنبين أيضاً وجود تطابق بين رؤية كل من "نيتشه" و "مارتن هايدجر" وبين بعض أسس استراتيجية التفكيك عند رائد التفكيكية "جاك دريدا"، فقد كان "لمارتن هايدجر" رؤية واضحة المعالم لنظرية اللغة و الأدب، كما كان يذهب فى الفصل بين الدال والمدلول إلى أبعد مدى، فاللغة ليست فقط مستقلة عن الأشياء و سابقة عليها ؛ بل هى تسبق الكينونة ذاتها، و هى أداة الكينونة للتعبير عن وجودها، و اللغة التى يتحدث عنها "هايدج" هى الشعر لأنهما فعل أصيل للإنشاء، فالشعر هو التسمية الأولى للوجود وعنه تتولد كل الأشياء، و كان "دريدا" عند بداية حديثه عن "التفكيك" قد استخدم مصطلح "التدمير" و هى كلمة محورية فى فلسفة "هايدجر".

الفصل الخامس : "علاقة التفكيك بالمذاهب الفوضوية والعدمية"

يتضمن هذا الفصل التأكيد على الخلفية الفلسفية (الوجودية) لكل من التفكيك و التأويل و التلقى و الفينومينولوجيا (كاتجاهات نقدية تُمثل فكر ما بعد الحداثة)، و تكشف هنا عن باقى جذور الحداثة و كيفية تداخلها كجذور أدت

إلى ما بعد الحادثة، و ذلك من خلال الكشف عن الجذور المشتركة التى أثرت بها الوجودية على التفكيرية و التأويل و التلقى و الفينومينولوجيا.

و نبين من خلال البحث فى هذا الفصل أهم سمات فكر ما بعد الحادثة، و انعكاس تلك السمات على النقد الأدبى و على أدب الحادثة و ما بعدها، لنرى كيف أثر الأخذ بالأفكار (التى هى جذور الحادثة) إلى أقصى مدى لها، و بعد تطويرها وتطبيقها فى مرحلة ما بعد الحادثة، وبعد تخلى فكر ما بعد الحادثة عن المركزية و النظام و القواعد الأدبية، ليحل محلها لا نهائية المعنى و لا مركزية الفكر و اللغة، فينتج عن ذلك تشتت المعنى و نسبية المعرفة و سيادة اللغة.

الخاتمة وأهم نتائج البحث.

و نحاول فى نهاية البحث أن نجيب على الأسئلة التى من أجلها توجه و انطلق البحث، بحسب ما توصلنا إليه من نتائج بحثنا خلال فصول هذا البحث.

أما عن المعوقات التى واجهت هذا البحث فكان أهمها ندرة المراجع المتخصصة أو عدم إتاحتها، إضافة إلى صعوبة الترجمة سواء للمراجع أو المصادر التى كُتبت جميعها إما بأسلوب يعتمد الغموض أو بأسلوب أدبى (يستخدم الكناية و التشبيهات البلاغية)، و صعوبة أخرى تتمثل فى اتساع موضوع البحث حيث يشتمل على موضوعات و فلسفات عدة (تغطى حولى أربعة قرون).

و لكن الحمد لله ولى التوفيق، الذى وفقنا إلى إتمام هذا البحث المتواضع، الذى نسأل الله عز و جل أن يجعله فى ميزان حسنات كل من ساهم بجهده ليوصلنا إلى تصويبه، و نسأل الله المغفرة و منكم المعذرة

فِيمَا سَقَطَ مِنَّا سَهْوَاً أَوْ خَطْأً، فَهَذَا جَهْدُ الْمُقِلِّ الَّذِي بِهِ نَبْتَغِي
مَرْتَضَاةَ اللَّهِ.

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الْعَلِيمِ الْخَبِيرِ الْعَفْوِ الْغَفُورِ.

obeyikandl.com